دعيني أنام !

للأستاذ محمد سعيد العريان

دعيني أنام !

إن عينيَّ لم تذوقا طعم الكرى منذ بعيد !

سنوات وسنوات ، وأنا دائب السُّرَى في هذه الطريق أفتش عن نفسي فلا أجد نفسي ، وأنشد سعادتي فلا أجد إلا شِقْوة النفس وظمأ الروح وقلق الضمير ! والطريق لا تنتهي إلى غاية ، والعثرات تتكاءد السالك في كل منعرج وكل ثنية !

دعيني أنام !

فهل رأيتِ السعادة إلا حلماً هنيئاً يتخايل للنفس في لحظةٍ ناعسةٍ ضرب النومُ على آذانها في ليلٍ مطبق ؟

ما أجمل هذه الفراشة تتواثب في مطارفها الوشَّاة على أعين الناس ! ولكن هيهات أن تنالها يد ! كم جهدت جهدي في اللحاق بها فما بلغْت ... !

دعيني أنام ! لعلي أن أنالها في سِنةٍ حالمةٍ تبلغ بي ما لا مَبلغ إليه في يقظة الحياة !

دعيني ، دعيني ... ! إنني وجدت نفسي هنا ، وطالما نشدت نفسي فما وجدتُها ... !

إن بي حنيناً إلى هذا الفراش الدافئ بعد طول السُّرى وجهد السهر وكدّ الطريق !

* * *

افتحي عينيك ياعزيزتي على حقائق هذا الوجود ثم خبِّريني ...

ذكِّريني ما كان من ماضيَّ ، فقد أنسانيه ما ترادف عليَّ من أحداث الزمان !

هل تذكرين يا عزيزتي تلك الأيام البعيدة ، يوم كنا وليس لنا ماضٍ نأسَى عليه ، ولا مستقبلٌ نتطلّع إليه ، والدنيا تدور بالناس في حلقتها المفرغة وتدور بنا ، فما يعنينا شيء من الدنيا ومن الناس ، وما نشعر من الزمان إلا باليوم الذي نعيش فيه ، هو كلُّ تاريخنا في الحياة لا ماضيَ له ولا آتٍ ... ؟

فذلك زمان كان فما له من معاد !

مَن كنتُ أنا عند الناس يومئذ ومن كنتِ ؟

هل كنا يومئذ إلا فتاة وفتى قد ألّف الحبّ بين قلبيهما ؛ فما يُريان في الطريق إلا ذراعاً إلى ذراع ، وخطوة إلى خطوة ، وقلباً يعطف على قلب ، وروحاً تهفو إلى روح ، وعلى الشفاه همسات تُخافت بها ، وفي العيون نظرات تتناجى . والناس تنظر إلينا فما يهمنا شيء من نظرات الناس ولا من حديث الناس ؛ لأننا كنا يومئذ نعيش في أنفسنا بعيدين عن دنيا الناس ...

هل تذكرين ... ؟

كان ذلك منذ بضع عشرة سنة ... وكنا صغيرين ... !

* * *

وجلسنا ذات يوم في حديقة على الشاطئ ... وكانت يدك بين يديّ وقد أطرق كلانا ، وتراءى لنا في لحظة حُلم رائع سعيد تجاوز بنا الزمان والمكان إلى حيث لم يكن لنا عهد ، يظلنا سقف واحد في دورة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرق من أحلام الشباب ... وظلت في إطراقك وظللتُ ، نتناجى ونتبادل الأفكار صامتين ؛ فما كانت بي حاجة لأحدّثك عما في نفسي ولا كانت بك حاجة ؛ وتفاهمنا على صمت ... ونظرتُ في عينيك ونظرتِ ، فتضرّجتْ وجنتاكِ من حياء ، وأحسستُ يدك تختلج بين يديّ ...

ونهضنا صامتين فأوصلتك إلى دارك وعدتُ وحيداً إلى داري وأنا أفكر ...

وعرفنا من يومئذ أن غداً هو يومٌ من عمر الزمان ؛ وما كان يعنينا قبلُ إلا حاضرنا الذي ننعم به ...

أما زلت تذكرين ياعزيزتي ؟

ولما ضُرب الحجاب بيننا وقامت دونه التقاليد ، تلفت القلب ينظر ؛ ولزمت الوحدة أياماً أعرض ذكريات الماضي ولهفة الحاضر وأمل المستقبل فعرفت ...

... عرفت يومئذ أن حقيقة الزمان ليست هي في هذا الحاضر ، ولا في الغد المنتظر ؛ ولكنها في اليوم الذي مضى ولا سبيل إليه ... أمس !

* * *

حينما يكون معنى الزمان في نفس الحي هو اليوم الذي يعيش فيه وحَسْب ، فهو في حقيقة الحياة ومعنى السعادة ؛ فإذا سولت له

الأمانيّ أن يتعجّل أيامه فيتطلّع إلى ما قد يكون فى غد ، فقد آذنته الدنيا بيوم يُطرد فيه من جنة السعادة نادما اسوان . . . ثم لا تكون إلا الثالثة ، حين يتذكر أن له ماضيا كان وطواه الزمن ؛ فما هو يومئذ حيٌّ يعيش فى حاضره ، ولا آملٌ يفكر فى مستقبله ؛ ولكنه ذكرى بلا رجاء ، ولهفة مالها انقضاء !

الحاضر هو الحقيقة ، هو السعادة ، هو الحياة ؛ وما الغد إلا وهمٌ يبدعه خيال الحيّ ليفر إليه من حاضره الذى هو به حَيٌّ يسعد بالحياة ؛ وما الأمس إلا الجزء الذى مات منا وسبقنا إلى الفناء !

ولكن الزمان على ذلك هو أمس ، واليوم ، والغد جميعاً : هذه الثلاثة هى حياة الحيّ وعمر الزمان ؛ لا سبيل إلى تجاهل ذلك بعد عرفانه !

ليتنى لم أعلم ! ليتنى لم أعلم !

ليتنى ظللت حياتى أجهل معنى الزمان ؛ لا أفكر فيما كان ، ولا أتوقع ما يكون ، ولا أعرف من عمر الزمان إلا اللحظة التى أعيش فيها !

* * *

. . . وتلاقينا مرة على ميعاد . . . هل تذكرين يا عزيزتى ؟ . . . وجلستُ أقرأ لك فصلاً بليغاً من كتاب كان معى ؛ فتندّت عيناك بالدمع ! . . . إننى ما أزال أذكر ذلك كأنه كان أمس ، على أن بينى وبينه عشر سنين ! . . . لقد قلتِ لى يومئذٍ كلمة ما زال صداها يرنّ فى أذنى :

« يا عزيزى ! ليس فى البشرية كلها من يقدر على خلق المعجزة التى تهزّ النفس من أعماقها غير الأديب البليغ ! »

وقلتِ كلاما آخر لا أذكره ، ولكن أثره ما زال يعمل فى نفسى ؛ فجهدت جهدى لأخلق المعجزة التى تهزّ النفس من أعماقها . . . ولم أذق طعم الكرى من يومئذ . . . !

ليت شعرى ، هل جاءك — وبينى وبينك حجاب التقاليد — نبأ ما كنت أبذل من أعصابى ومن دمى فى سبيل هذه الغاية حرصاً على أن أكون يوم اللقاء كما تريدين أن أكون ؟

يا ليت يا عزيزتى ، يا ليت !

عشر سنين من عمر الشباب وأنا أخرج للناس كل يوم جديداً فى الأدب ، إلا يكنْ من إلهامك فإنه بسبيل إلى تحقيق أملك !

يترادف الليل والنهار ، وتتعاقب الظلمة والنور ، وأنا عاكف على دفاترى وأوراقى ، أكتب وأفكر جاهداً لأخلق المعجزة التى تهزّ النفس من أعماقها . . . !

تُرى هل بَلَغْتُ ؟

هأنذا على شَرَفٍ من الأرض فى طريق لاحب ، وثمة بارقةٌ تلوح من بعيد . . .

وما تزال الفَراشة الجميلة تتواثب فى مطارفها المُوَشّاة ، لا تنالها يدى على طول السُّرَى وجهد السَّهَر وكدّ الطريق . . حَتّامَ المسير ؟

من أنا اليوم عند الناس ومن أنت ؟ . .

ها نحن أولاء قد التقينا منذ عام يظلّنا سقف واحد فى دويرة تجمعنا وتجمع لنا ما تفرق من أحلام الشباب ؛ ووجدنا تعبير رؤيانا . ولكن . . . أين أنا ؟ وأين أنت ؟

ماذا أجدى علىّ هذا الجهد المتواصل عشر سنين أبتذل شبابى وأنفق من دمى فى سبيل المجد والشهرة والصيت البعيد !

المجد ؟ الشهرة ؟ الصوت المسموع ؟ . . . ما كل أولئك يا عزيزتى فى حقيقة الحياة وفى دنيا الناس ؟

واخسارة الصفقة ! إن الفراشة الجميلة لا يجتذبها شىء من كل أولئك . إنها جميعاً أوهام وأباطيل ليست من السعادة ولا هى سبيلٌ إلى السعادة

أين منى نفسى وأين أنتِ منى ؟

لقد التقينا يا عزيزتى كما تراءى لنا فى أحلام الشباب منذ بضع عشرة سنة ، ولكننى لستُ هنا ، ولكنكِ لستِ هنا . . . !

إنك أنتِ التى أغريتنى بسلوك هذا السبيل منذ سنوات وسنوات فنذرتُ نفسى للفن حتى أبلغ إعجابك ، فلا تسألينى بعدُ عن نفسى !

هذا العبوس فى وجهك يا عزيزتى ألمّ إلى آلامٍ على كاهلى . .

حدثينى صريحة : لماذا أنتِ غضبانة ؟

أنت تريدينى كما كنتُ منذ بضع عشرة سنة : فتًى لفتاة لا يشعر شعورَ الحيّ إلا معها ؟

أنت تدعينى لرحلة من مثل ما كان فى سالف الأيام ذراعاً إلى ذراع على الطريق ؟

أنت تسألينى : متى أراك إلى جانبى كعهد مضى لا يعنيكَ من أمر شيء إلا أن تكون لى وأكون ... ؟

وأنت إلى كل أولئك تريدين لى المجد والشهرة والصيت البعيد ؟

لقد أذكرتنى ما كان من أمرى وأمرك يا عزيزتى، وأيقظتِ فى نفسى ما كان راقداً من زمان ؛ وهجتنى إلى ذكرى اللهو والهوى والصبابة وسعادة الحب فى سالف الأيام ، حين لم يكن فى الدنيا غيرى وغيرك ، ولم يكن الزمان إلا اللحظة التى نعيش فيها لا ماضىَ له ولا آت !

ما كان أسعدنى بهذا الماضى !

فماذا أجدى علىّ ما نلت من دنياى بعد هذا الجهاد ؟

ها هنا شيء وشى . فمنذا يهدينى بينهما سبيل الرشاد ؟

* * *

دعينى أنام !

إن عينىّ لم تذوقا طعم الكرى منذ سنوات وسنوات ...

دعينى دعينى ... إننى وجدت نفسى هنا ... !

ما المجد ، والشهرة ، والصوت المسموع ، إلا وهم من الوهم وحيلة من الحيلة لتفسد على السعيد دنياه !

لا تدعينى يا عزيزتى بعدُ إلى الجهاد والعمل . إن بى حنيناً إلى هذا الفراش الدافئ بعد طول السرى وجهد السهر وكدّ الطريق ... !

دعينى أنام لعلى أبلغ من السعادة فى سِنةٍ حالةٍ ما لا مبلغ إليه فى يقظة الحياة !

بل دعينى يا عزيزتى أستيقظ من ذلك الحلم الطويل الذى ضرب على عينىّ بضع عشرة سنة أهذى باسم الفن والأدب والشهرة والجاه والصيت

هذه هى الحياة ، هذه هى الدنيا ، كل ما عدا ذلك خداع وتلبيس ووهم من الأوهام !

دعينى ، دعينى !

« شبرا »

محمد سعيد العريان

دراســـات فى الأدب

للدكتور عبد الوهاب عزام

موضوع الأدب

الإنسان إما أن يبين عن حقائق خارجة عن نفسه لا يصلها بخياله ولا يصبغها بعاطفته ، وإما أن يعبّر عن حقائق امتزج بها الخيال ولوّنتها العاطفة ، أو عن خيالات مخترعة ليست صورة من حقائق العالم

إذا قال الجغرافى فى وصف أرض : فيها أودية عميقة بين جبال عالية ، فقد أبان عن حقيقة رآها أو سمعها ؛ لم يصلها بالعاطفة فيبيّن إعجابه بها أو خوفه منها أو انبساطه أو انقباضه لمرآها أو ما تخيله حين شاهدها

وإذا قال كاتب فى وصف هذه الأرض : « تهولك بها أودية عميقة تطلّ عليها جبال شامخة عاتية يحلق الطرف دون ذُراها ». فقد أبان عن الحقيقة مشوبة بما شعر هو به من رهبة وما تخيّل من إطلال الجبال على الأودية ، وتحليق البصر دون قممها

وكذلك يقول الجغرافى : « صحراء منبسطة مستوية طرقها متشابهة ، شديدة الحر ، كثيرة الرياح » فينقل إلى السامع صورة الصحراء لم تغيّرها عاطفته ، ولم يزد عليها خياله

ويقول الشاعر[1] فى وصف هذه الصحراء :

وتجهل كاطّراد السيف محتجز ... عن الأدلاّء مسجور الصياخيد

تمشى الرياح به حسرى مولّهة ... حيرى تلوذ بأكناف الجلاميد

موقّف المتن لا تمضى السبيل به ... إلا التخلل ريثا بعد تجهيد

فتراه قد أفاض على الصورة الطبيعية ألواناً من شعوره وتخيله

وانظر الفرق بين فلكىّ يتكلم عن الشمس طلوعها وغروبها ودورتها السنوية ، وعن القمر ومنازله ، والنجوم وحُبُكها ؛ يصف الحقيقة كما هى على قدر إدراكه، وبين من يقول مثلا :

منع البقاءَ تقلبُ الشمس ... وطلوعُها من حيث لا تُمسى

وطلوعُها حمراءَ صافية ... وغروبها صفراء كالورس

(١) هو مسلم بن الوليد